المحور الأول : أثر العقيدة والشريعة الإسلامية على الفنون والعمارة الإسلامية

العقيدة الإسلامية وأثرها في تصميم شرفات المساجد في العصر المملوكي لاستلهام تصميمات لشرفات المساجد المعاصرة

د.نهلة حسين فرغلي
مدرس بكلية الفنون التطبيقية
جامعة حلوان
جمهورية مصر العربية

تمهيد :

لقد كان التطور الذى أحدثه الإسلام فى حياة الناس وأفكارهم جذريا، والمعجزة القرآنية الباهرة لم تضع البشرية أمام تصور جديد وطرائق موضوعية فى التفكير فحسب ، وإنما وضعتهم أيضا أمام وعى جمالى يجد تجلياته فى الفكر واللغة والسلوك والفن والعمارة.

ولم يكن الاسلام دينا يلبى حاجات الانسان الروحية فحسب، وإنما جاء بناءً كلياً متماسكاً، ونظاماً معرفياً متوازناً ومتكاملا، وضع القواعد الاساسية لحياة الأفراد والمجتمعات، من هنا كانت الجماليات الإسلامية تبدأ بالنص القرآنى والحديث النبوي وتمتد عبر الحياة الإسلامية فى مختلف جوانبها الفكرية والاجتماعية والفنية لتنتهى بالسلوكيات الفردية. ومع احتكاك الدين بالفلسفة والعلوم وثقافات الشعوب ظهرت تنويعات فى هذا الوعى الجمالى والذى بنى على منطلقين أساسيين هما : التوحيد وهو غاية الفكر الإسلامى، والوحدة فى نظام العالم ، وهى وحدة قائمة على التوازن والتجاذب والتناسب. ومن تلازم هذين المبدأين كانت وحدة الفكر ووحدة الجمال، وكان النص القرآنى واحتمالات تأمله وتفسيره هو الملهم فى هذا التنوع، وأبدع المتصوفة فى الوصول إلى لغة خاصة فى الخطاب لها جمالياتها، كما تحدث ابن القيم عن جمال الظاهر والباطن ورأى أن الجمال الباطن هو المحبوب لذاته وهو جمال العلم والعقل والجود والعفة، وهو محل نظر الله من عبده وموضع محبته. (3- - 5- 32) "إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم " (رواه مسلم)

من هنا كان الإسلام نفسه بعقيدته وفكره وفلسفته وروحه هو المكون الرئيسى للعمارة الإسلامية، وما يستوقف النظر هنا أن الاسلام فى فترات تكوينه لم يشأ أن يكون له طابع معمارى خاص، لذلك فالعقيدة الخالصة الصافية كما أوحي بها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكما عرفها خلفاؤه الأوائل لم يحاول أصحابها ولا شعروا بالحاجة لأن يعبروا عن إيمانهم تعبيرا معماريا إنشائيا ذا فخامة، فالطابع الفريد للمسجد الإسلامى المميز ببهو الأعمدة لا يتمثل فى التحسينات الفنية الصغيرة التى أدخلت على أساليب الإنشاء القديمة ولكن يتمثل فى أنه نجح فى خلق تعبير معمارى جديد عن طريق تشكيل وتنظيم العناصر التركيبية والإنشائية القديمة ، ولم يستغرق فى ذلك إلا عشرات قليلة من السنين حتى طالعنا الرعيل الأول من معماريي الإسلام بتلك الطريقة الفذة التى تمكنوا بها من المحافظة على الشخصية الإسلامية والتعبير عنها تعبيرا معماريا منظورا، وذلك باستعمال نفس العناصر الموجودة فى الحضارات الشرقية السابقة فى قالب من البساطة الشديدة وروح الجد التى تصور صلابة العزم التى امتاز بها المسلمون فى عصورهم الاولى وكذلك تترجم نظرة الإسلام المتمثلة فى أن الإنسان لابد له أن يعبد الله عبادة مباشرة دون وسائط . (2- - 364 - 377)

فإذا مررنا بالعصور التاريخية المختلفة التى تعاقبت على الفن الاسلامى حتى نصل الى عصر دولة المماليك فيما بين عامى 648 و 923 هـ (1250 – 1517م) فسنجده العصر الذهبى فى تاريخ العمارة الإسلامية فى مصر فقد كان الإقبال عظيما على تشييد العمائر المختلفة من جوامع ومدارس و أضرحة ووكالات وأسبلة كما ظهر

التنوع والإتقان والأناقة فى شتى العناصر المعمارية من واجهات ومنارات وقباب وزخارف جصية ورخامية، وكان من أهم مميزات هذه العمارة زيادة العناية بواجهات المساجد وهى العناية التى بدأت فى عمائر الطراز الفاطمى وأصبحت بعد ذلك قاعدة متبعة فى عصر المماليك تتجلى فى العديد من المظاهر المعمارية والزخرفية كتجاويف وحنايا عمودية قد تفتح فيها نوافذ وقد تنتهى بزخارف معمارية من المقرنصات، وكأشرطة من الزخارف والكتابات القرآنية أو التاريخية، وكالشرفات المسننة التى تتوج الواجهة . (1- 71 – 79)

فالشرفات – إذن - وإن لم تكن ابتكارا مملوكيا خالصا، إلا أنها شهدت تطورا وطفرة تصميمة فى العصر المملوكى.

الشرفات قبل العصر المملوكى :

إن السقف المسطح لا يمثل نهاية جمالية مناسبة لأى مبنى إذ تنقصه دائماً تتويجة تدل على أن المبنى انتهى، هذا الذى حدا بالمعمارين المسلمين اقتباس الشرفات التى هى وحدات زخرفية من الطوب أو الحجر أو الأسمنت توضع متراصة على حافة السقف كأنها إطار أعلى .

والشرفة تعتبر أصلا من عناصر العمارة الدفاعية فى الأسوار والأبراج كانت عبارة عن حجارة تبنى متقاربة فى أعلى السور ليحتمى وراءها المدافعون ويشرفون على المهاجمين ويطلقون عليهم السهام وكل زخارف تشبهها سواء كانت أعلى المبنى أم على خزانة أم على منبر تسمى شرفة (أو شرافة).

وقد ارتبطت الشرافات بالمساجد ارتباطاً وثيقا حتى سميت بعرائس السماء، والحق أن أشكالها من بعيد تشبه هيئات آدمية متراصة، وفى بعض كتابات الصوفية أن عرائس السماء تسبح بحمد الله أو تنشد ترنيمات دينية، والعامة يطلقون على الشرفات اسم العرائس لأنها فى بعض الأحيان تشبه أشكالا آدمية تجريدية نتلاصق أيديها وأرجلها كما فى شرافات مسجد ابن طولون (من العصر العباسى)، وبتأمل شرفات مثل هذه نشاهد شكلا أشبه بالعروسة المجردة على امتداد حافة الجدران وبتأمل أكثر نجد أن هذا الشكل فى تكراره إنما هو امتداد تجريدي لأشكال المصلين فى صلاة الجماعة يقفون صفاً واحداً؛ الايدي تحدث الأقواس الجانبة بينما تكرار الجلابيب يحدث الشكل الدائرى المتكرر في أشكال العرائس التجريدية المتتالية المتكررة، ويحدث للعين مزج فى الرؤية البصرية العامة بين الكتلة والفراغ بنظام ثابت وهذا الامتزاج فى الشكل كأنه يترجم الآية الكريمة " يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى " (الروم 19) (5- - 75) أما هذا التراص والتتابع والتماثل بين الوحدات الممثلة فتترجم قول الله " إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص " (الصف 4) ؛ وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :" لا فضل لعربى على عجمي إلا بالتقوى " حيث تتلاشى الفوارق وتذوب الطبقات ويصطف الجميع متعبدين لله رب العالمين وقد اصطفت الاقدام وتلاصقت الأكتاف وهتفت القلوب على قلب واحد ترجو رضوان الله مرددة " إياك نعبد وإياك نستعين . إهدنا الصراط المستقيم " (الفاتحة 5- 6)

وقد أخذت الشرفات فيما بعد أشكالا متعددة من أشهرها الشرفات المسننة كما فى الجامع الازهر (من العصر الفاطمى) والتى استمر استعمالها بعد ذلك فى العصر الايوبي والمملوكى .

الشرفات فى العصر المملوكى :-

ظهرت فى هذا العصر شرفات يكون الشكل السالب (أى الفراغ) عكس الشكل الموجب (أى المصمت) ثم ظهرت الشرفات المورقة ثم تطورت وتلامست وغطى سطحها الخارجى بزخارف نباتية متشابكة، وأبدع الفنان فى تصميم الشرفات المورقة التى تتناسب وتتكامل ثم تتكرر فى مواضع مختلفة من الواجهة، كما شاعت الشرفات المسننة ذات الزوايا الحادة المتتالية وتنوعت نهايات التوريقات ونهايات الزوايا الحادة للشرفات المسننة مما ترك لنا ثروة كبيرة من التصميمات التى تكاملت مع سائر عناصر البناء.

مفهوم الشكل والأرضية وعلاقته بتصميم الشرفات فى العصر المملوكى :-

هناك دائما تناغم بين الكتلة والفراغ وبين السالب والموجب، من هذا الحوار الأبدى بين المصمت والمفرغ .. بين الناتئ والغائر.. من هنا كانت العلاقة بين الشكل والارضية أو بين الشكل والفراغ، فالشكل هو الكتلة والشئ المرئى المحسوس الأساسى والأشمامى الأكثر أهمية والأرضية هى الفراغ أو الشئ الثانوى والمكمل الخلفى والأقل أهمية .ومشكلة الشكل والأرضية هى من الدراسات التى شغلت فكر الباحثين لزمن طويل حتى تم وضع قواعد من شأنها أن تقرر أى الأجزاء هى التى ستبدو "شكلا" وأيها التى ستبدو"أرضية"، وتتخلص هذة القواعد فيما يلى:

- المسطح المحصور يميل لأن يبدو شكلا أما المساحة الأخرى التى تحصر الأولى فهى التى تبدو كأرضية.
- تميل الوحدات ذات المساحة الأصغر إلى إن تبدو شكلا حينما تكون الوحدات الأكبر ذات حدود بسيطة.
- حين يكون هناك مسطح خال بالنسبة لآخر مجاور ومنقوش، فإن الحدود الخارجية التى تفصل بين المسطحين من شأنها أن تخلق إحساسا بان المساحة المنقوشه هى الشكل وأن المساحة الخالية هى الارضية.
- للخبرات اليومية العادية أثر فى علاقة الشكل بالأرضية فالإحساس الطبيعى بالتوازن وبالجاذبية الأرضية – مثلا – يتطلب منا أن ندرك أن الأشكال المثلثة المستقرة على قاعدتها هى الشكل وما عداها هو الاضية.
- يميل الابسط إلى أن يبدو فى المقدمة وأقرب للرائى عن الأكثر تعقيداً الذى يبدو بعيداً (4- 402 - 405)

وتتنوع العلاقات بين الشكل والأرضية فتأخذ تنظيمات مختلفة ومن الضرورى وجود التباين حتى يظهر الشكل وعند إعطاء قيمة ما للأرضية تصبح شكلا، وقد درج الفنان المسلم على ألا يترك فراغات فى عمله الفنى، وهذه المسألة لا تفسر بسذاجة على أساس عدم ترك فراغ للشيطان وإنما على أساس المنظور الروحى وعلى الرؤية الفنية الإسلامية لتحقيق التوازن والتناسق والانسجام، وعلى أن الفراغ المعادل للعدم غير موجود أصلا فى الرؤية الاسلامية، فدائما ثمة وجود "خلق وموجد "خالق حق"

فى كل مكان... " والله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله " (البقرة 115) (3- 73)

ولعل مرد ذلك إلى العلاقة القائمة بين الجسد والروح فالفراغات تمثل الروح والأشكال تمثل الجسد، وبين الجسد والروح تعادل انعكس على تلك العلاقات بين الشكل والارضية.

و الشرفات هى أوضح وأبسط مفهوم لعلاقة الشكل بالأرضية / الكتله بالفراغ، وقد اتخذت صوراً شديدة التنوع، فبالإضافة لما تحمله من معان رمزية فى تأكيد المساواة بين المسلمين واتجاهم جميعا بكليتهم إلى الله سبحانه فى تراص واصطفاف وخروج الحى من الميت، فانها تحمل أيضا قيمة تشكيلية تتفق وتلك المعانى وتوضح أبسط علاقة للسالب بالموجب.

وبتطبيق ما سبق على نماذج مختارة من الشرفات فى العصر المملوكى نجد ما ياتى :-

اهتم المصمم بالفراغ كاهتمامه بالشكل تماما، فلم يغفل أحدهما لحساب الآخر فجاءت الشرفات غاية فى التناسق والإحكام، وإن كان المشاهد يرى الشكل أولا فانه لن يقف طويلا حتى يرى حتى الأرضية (الفراغ) بنفس الاهتمام، ففى كثير من الأحيان يتقاسمان أعلى البناء فيكون الفراغ مساويا تماما للشكل أما فى الاحيان الاخرى التى لا يتساويان فيها فإننا لا نجد شكلا محصورا بسيطا صغيرا يفرض نفسه علينا كشكل وما عداه أرضية، وإنما نرى شكلا يتبادل الأدوار مع الفراغ، فتارة يجذب انتباهنا الموجب، وتارة ننتبه للسالب، وعندما اتشحت

الاشكال الموجبة بالزخارف، كانت الفراغات بمثابة وقفات استراحة بين دفعة زخرفية واخرى.

وهكذا أعطى الفنان/ المصمم لعناصره الموجبه والسالبة نفس الاهتمام. وهكذا يتكامل الجسد والروح في الفكر الاسلامى.. وهكذا تتصل الأرض بالسماء من خلال دعوة مستجابة لمسلم مخلص، وتتصل السماء بالأرض من خلال سلام الله ورحمته التى تنزل على المصلين في كل مرة يناحون ربهم في صلاتهم : " السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين" فتكون توريقات الشرفات من جنه الله في ارضه التى يستظل بها المصلون في مساجدهم.

نماذج مختار لشرفات بعض المساجد في العصر المملوكى:

النموذج الأول : شرفات جامع السلطان حسن

وهي عبارة عن توريقات صاعدة لأعلى ، تقترب فيها كتلة الشكل الموجب من الفراغ السالب ولا تساويها ، وتقوم على نسب هندسية حيث ينحصر الجزء المتكرر داخل مستطيل رأسي بنسبة 1:2 .

النموذج الثاني :شرفات جامع السلطان الغوري

وهي أيضا توريقات صاعدة أكثر تفريعا وتراصا فيما بينها ، تتخللها فراغات مورقة ذات مساحات صغيرة مأخوذة من نفس نسب التوريق الأصلي للكتلة ، وفيه حوار بين الصاعد من الأرض إلى السماء ، وبين النازل من السماء إلى الأرض ، بين دعوة صاعدة ورحمة نازلة.

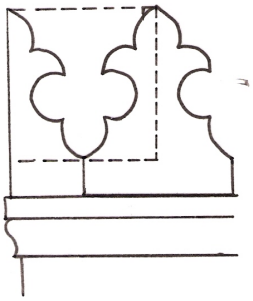
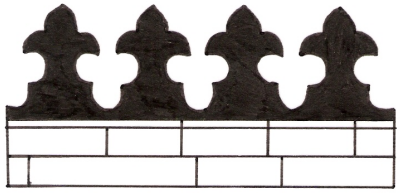
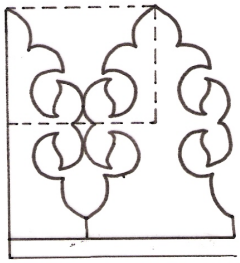
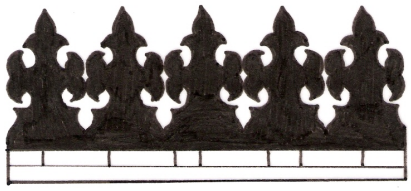
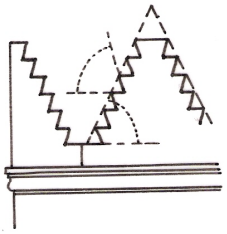
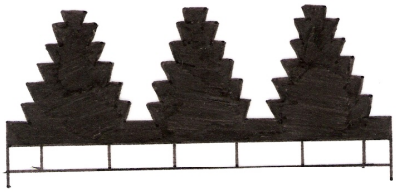
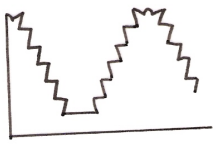
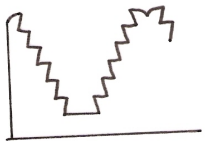

تصميمات مقترحة لشرفات المساجد المعاصرة :

"إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه" (فاطر 10)

"يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي " (الروم 19)

" إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص " (الصف 4)

على فكرة المساواة بين المسلمين ....

على إخراج الله الحي من الميت ....

على لقاء بين السماء والأرض .. بين عبادة صاعدة ورحمة نازلة ....

على تراص المسلمين وتوادهم وتراحمهم وتعاطفهم ....

.....كانت الشرفات الإسلامية التي توجت نهايات المساجد ، ومنها إلى غيرها من العمائر والتطبيقات ..

....ومنها حاولت الباحثة معايشة أثر العقيدة الإسلامية واستلهام هذا الأثر من أجل ابتكار تصميمات معاصرة تصلح لشرفات المساجد في العصر الحديث ..

فما كان من توفيق فمن الله وما كان من خطأ فمن نفسي.

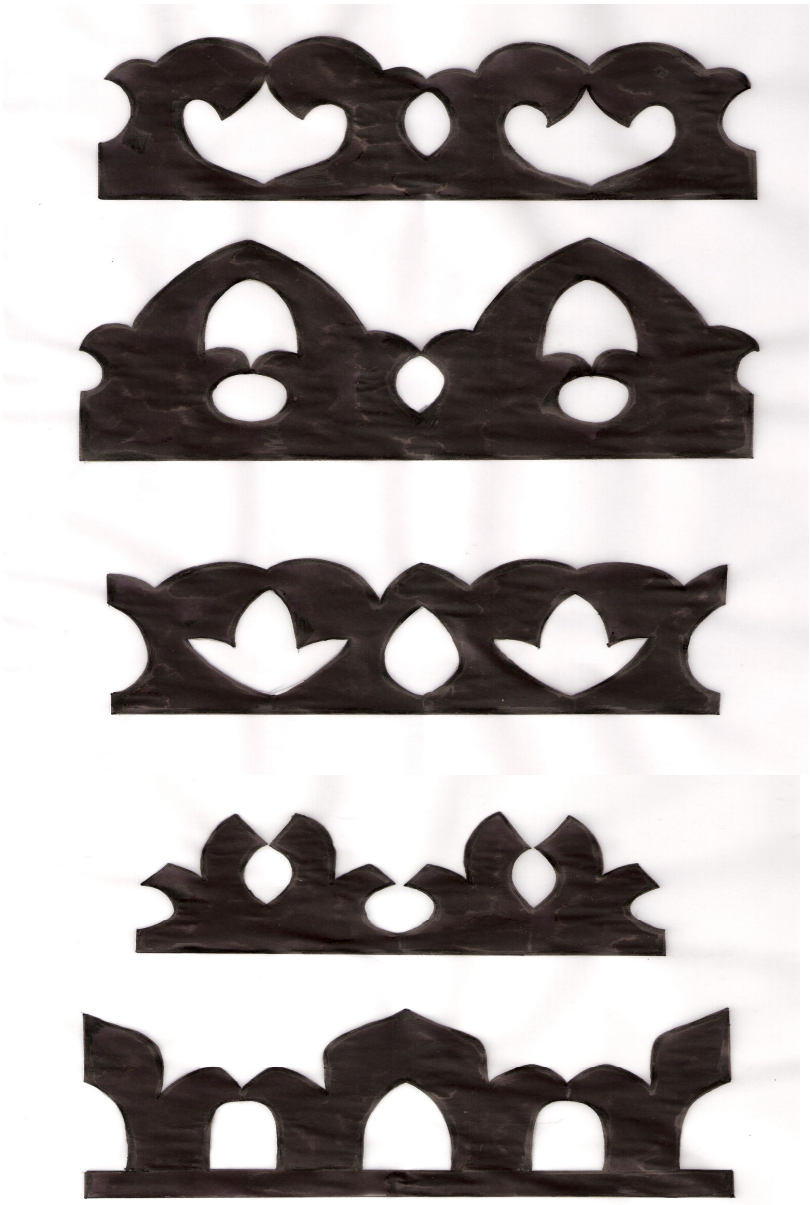

المـراجـــع

1. زكى محمد حسن : فنون الإسلام – دار الرائد العربى : بيروت 1981م
2. شاخت وبوزورث : تراث الإسلام – ترجمة د. محمد زهير وآخران – عالم المعرفة: الكويت 1988م
3. عبد الفتاح رواس : مدخل الى علم الجمال الاسلامى - دار قتيبة : بيروت 1991م
4. عبد الفتاح رياض: التكوين فى الفنون التشكيلية- دار النهضة العربية : القاهرة – ط4
5. مصطفى عبد الرحيم :ظاهرة التكرار فى الفنون الاسلامية- الهيئة المصرية العامة للكتاب : القاهرة 1997م